محاضرة بابا روما، وأوربا المسيحية والعوالم الجديدة، والإسلام

رضوان السيد *

1

يصعُبُ تحديد أهداف البابا بنديكتوس السادس عشر من وراء محاضرته بجامعة رغنسبورغ، تحت عنوان: "العقل والإيمان": هل أراد عرض صورةٍ جديدةٍ وتأويلٍ جديد لتطور "تاريخ" العقيدة المسيحية، بطريقةٍ تجعل من التقليد الكاثوليكي صديقاً للحداثة العلمانية من خلال ربط "الإيمان" الكاثوليكي بالفلسفة الإغريقية، التي يعتقدُ هو أنها هي التي أسَّستْ لأوروبا الحديثة؟ إنْ كان هذا مُراده فقد أخطأ الهدف، لأنّ الإحياء اليوناني في عصري النهضة والأنوار كان الهدفُ منه ذا شُعبتين؛ **الأولى** إنسانوية مُعادية للدين تريدُ الاستنصار بالوثنيات الإغريقية على التقليد الكاثوليكي بالذات. و**الثانية**: إعادة تحديد الهوية الأوروبية، باعتبار أنّ الإغريق هم الذين أنْشؤُوا القوميات الأولى، والدول الأولى المتمايزة عن الشعوب الآرية والهندو-أوروبية الأخرى. والمعروف أنّ الكنيسة الكاثولكية اختارت منذ مطلع القرن العاشر الميلادي (وربما قبل ذلك كما يقول مؤرِّخو مدرسة **الحوليات** الفرنسية) الانتماء الروماني، والإمبراطورية الرومانية المقدَّسة. ولذلك لا يتلاقى البابا إنْ كان هذا هدفه مع ماضي كنيسته نفسه!

فهل أراد البابا إذن أن يُحاورَ خصومَهُ من البروتستانت الذين صارعهم طَوالَ حياته، من طريق القول بأنّ اللاهوت المسيحيَّ واحدٌ منذ صار العهدُ القديم في القرن الثاني الميلادي كتاباً يونانيًّا (في الترجمة السبعينية بالإسكندرية)، ومنذ وجد العهدُ الجديد صيغةٍ يونانية على يد بولس الرسول كما ذكر هو في محاضرته؟ إنْ كان هذا مُراده فقد أخطأ الهَدَف أيضاً؛ لأنّ البروتستانت ما لبثوا أن سايروا الحداثة والعلمانية واليهودية في التخلُّص من الطابع اليوناني الخفيف للعهد القديم، والطابع الهيللينى (الغنوصي) للعهد الجديد. ثم إنّ الكنائس البروتستانتية الكبرى تكادُ تخلو الآن من المؤمنين والأتْباع الذين جرفتهم الإنجيليات الجديدة المندفعة وراء ارتعاشات التجربة المباشرة مع السيد المسيح نفسه، بدون لاهوتٍ ولا كتاب!

وإذا كان البابا لا يخاطبُ الحداثيين الذين ما عاد للدين مكانٌ في حِياتهم، ولا البروتستانت والإنجيليين الجُدُد، الذين لا يأبهونَ كثيراً بالمشيج اليوناني القديم أو المتأخِر، فمن يخاطبُ إذن؟ لنلخِّصْ محاضرة البابا أولاً ولنحاول فهمها من الداخل، ثم لنعد إلى محاولة تأمُّل مقاصده وغاياته.

يبدأ البابا المحاضرة بتذكّر نفسه أستاذاً للاّهوت بجامعة رغنسبورغ عام (1959م)، حيث كان يلتقي بزملائه البروتستانت، وتدورُ بينهم حواراتٌ حول إمكان التلاقي؛ لأنّ بالجامعة المذكورة كليتين إحداهما للاهوت الكاثوليكي والأخرى للاهوت البروتستانتي. ثم يختارُ بدءَ موضوعه في العقل والإيمان باقتباسٍ من الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوغوس (1391-1425م) ذكره في معرض مجادلته لعالمٍ فارسيٍ مسلمٍ مفترَض مؤدَّاه أنّ الله –سبحانه- ذو طبيعةٍ عاقلة، ولذلك فإنّ الإيمانَ بالنسبة له يرتبط بالعقل، وهو يقصدُ بذلك الإرادة الحُرَّة العاقلة. والبابا (مستنداً إلى عادل تيودور خوري عالم اللاهوت الكاثوليكي، ودارِس الإسلاميات، المعروف، ذي الأصل اللبناني، والذي نشر جدالات مانويل الثاني أو محاوراته مع المسلمين عام 1966م) يذكر أنّ فكرة لاعُنفية الذات الإلهية، ومن ثم تعقُّلها - آتيةٌ من الفلسفة الإغريقية (اليونانية). ولليونانية معنيان اصطلاحيان. فالتقليد اليوناني في المسيحية هو التقليد الديني الأرثوذكسي، والأرثوذكسية هي دين الإمبراطور مانويل صاحب الجداليات. لكنّ البابا يختارُ المعنى الثاني للاصطلاح دون مبرِّر: اليونان القُدامى الذين صنعوا التقليد الفلسفيَّ المعروف من خلال الثلاثي المشهور الذي يذكره البابا خلال محاضرته: سقراط وأفلاطون وأرسطو. وأقولُ: إنّ اختيار البابا للمعنى الثاني فيه تحكُّم؛ لأنّ هؤلاء الفلاسفة ما كانوا مسيحيين، ولا علاقة لهم بتجربة المسيح غيرِ العنيفة؛ في حينِ أنّ التقليد الدينيَّ الأرثوذكسيَّ مُعادٍ للعنف باسمِ الدين- وقد كان الأولى به أن يتبناه بدلاً من نسبة عدم العنف إلى تأثير أفلاطون! ولا شكَّ أنّ الإمبراطور مانويل نفسه لو كان حيًّا وقَرَأ كلام البابا لتعجب وأغرب ضاحكاً؛ لأنّ العنف الديني الذي أطلقته الكنيسة الكاثوليكية (البابا أوربان الثاني عام 1095م) ضد الشرق الإسلامي، نال أول ما نال بشواظه الأرثوذكسية، إذ احتلّ الفرسان الصليبيون القسطنطِينية وظلّوا فيها مستعمرين لأكثر من خمسين عاماً وباسم المسيح العنيف وليس المُسالم أو العاقل!

بعدها يتابع البابا المحاضرة بعرض تأويلٍ جديدٍ للعهد القديم، خُلاصتُهُ أنه تأغرق (صارِ حضاريًّا!) بعد ترجمته لليونانية، فيتجنَّبُ بذلك صورة يهوه العنيفة في التوراة. أمّا يونانية العهد الجديد غير العنيفة فآتيةٌ من بولس الرسول الذي قصد مقدونيا استناداً لرؤيا رآها (مقدونيا اليونانية؟ اليونان القُدامى ما كانوا يعتبرونها كذلك، ويقولون: إنّ الإسكندر المقدوني الذي فتح أثينا كان متوحِّشا!) – كما أن يونانية الإنجيل آتيةٌ أيضاً من لغته الأولى المعروفة (ربما كُتبت بعض الأناجيل في الأصل بالآرامية لغة المسيح، أو بالعبرية؛ لكنّ أقدم نُسَخ الإنجيل كما انتشر في العالم مَصُوغةٌ باليونانية، وتعود إلى عام 225م)، والذي تبدأ إحدى نُسَخه القانونية بالعبارة المشهورة: في البدء كان الكلمة (اللوغوس)، وكان الكلمة الله. وهنا يوحّد البابا بين الألوهية والكلمة (أي المعرفة) والنوس (أي العقل). وما اجتمعت الفلسفة الأفلاطونية المُسالمة والمعرفة والعقل إلاّ في مقدونيا على يد بولس الرسول؛ ولذلك فإنّ المسيحية ما "تحضَّرت" في المشرق حيث ظهرت، بل في أوروبا؛ ومن هنا تأتي الهوية المسيحية لأوروبا التي تبادلت التكوين والصناعة معها: المسيحية

أوروبية، وأوروبا مسيحية! وأحسبُ أنّ هذا التفسير المبتكر للطرفين: المسيحية وأوروبا كان سيسُرُّ الشيخ ابن تيمية صاحب الكتاب الجدالي الكبير ضد المسيحية: " الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح"، والذي قال فيه: ما تنصرت الروم (والروم في الاصطِلاح القرآني والعربي هم البيزنطيون اليونان)، لكنّ النصرانية تروَّمتْ! كما أنه سيسُرُّ أوْسَرَّ ولا شكّ الرئيس الفرنسي الأسبق جيسكار ديستان، الذي ترأس لجنة صاغت الدستور الأوروبي الميّت، وكان في مقدّماته أنّ الهوية العميقة لأوروبا مسيحية (وهذا لا بأس فيه)؛ ثم رتّب على ذلك أنّ تركيا المسلمة إن دخلت الاتحاد الأوروبي فإنّ ذلك سيُفسدُ الهوية المسيحية الخالدة فساداً لا صَلاحَ بعده! وهذا هو رأْيُ البابا الحالي الذي ذكره قبل ثلاثِ سنواتٍ في خضمّ نقاشات ذاك الدستور، وكان وقتها ما يزالُ رئيساً لمجمع العقيدة أو الإيمان بالفاتيكان، واسمُهُ الكاردينال جوزف راتسينغر. ويزعُمُ الأتراك أنّ حُبَّه المفقودَ لهم يعودُ لأيام مطرانيته على ميونيخ، واستغرابه للباس نساء العمّال الأتراك أو لحجابهنّ!

بعد الترابط الذي استنتجه البابا بين العقل اليوناني والمسيحية وأوروبا، ينصرف لقراءةِ شخصيةٍ بعض الشيء للتاريخ اللاهوتي، وصورةِ الله التي يفترضها في المسيحية. فاللاهوت الكاثوليكي "الأصلي" هو لاهوت اللوغوس أو لاهوت العقل والإيمان (باستثناء قلةٍ نادرةٍ لا حُكْمَ لها مثل دونز سكوتوس). وهو يذكر بينٍ أركان ذاك اللاهوت أوغسطينوس وتوما الأكويني. وأوغسطين أفلوطيني غنوصي فعلاً. وليس الأمر كذلك مع توماس إكويناس. فتوما الأكويني الذي صنع اللاهوت السكولائي (المدرسي) للكاثوليكية، أخذ الخلطة اللاهوتية من الغزالي (في قراءةٍ نقديةٍ وبنائيةٍ في الوقت نفسه) في مواجهة ابن رشد. وفي تلك الخلطة دخل اليونان (أرسطو بالذات) دخولاً تنظيميًّا من طريق إقامةٍ اللاهوت (علم الكلام عند المسلمين) على المنطق الصوري. فالصوفية المسيحية صوفيةٌ أفلاطونية وأفلوطينية، وكذلك الروح العام. أمّا اللاهوتُ الرسمي(شأنه في ذلك شأن علم الكلام لدى المعتزلة والأشاعرة) فهو قائمٌ على منطق أرسطو. وقد يكون هذا هو المقام الصحيح لقراءة "صورة الله العاقلة" عند البابا، الذي هو في الأصل أستاذ لاهوتٍ كاثوليكيٍ كبيرٍ فعلاً؛ ولذلك يجبُ تتبُّعُ تأويله اللاهوتي للتاريخ المسيحي الوسيط بعناية. في المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية لاهوتان، وكذلك في الإسلام واليهودية. أمّا في البروتستانتية فهناك لاهوتٌ واحد. اللاهوتان هما إذا صحَّ التعبير: لاهوتُ الرحمة والعناية والفضل، ولاهوتُ التنزيه والعدل. وهذان التياران موجودان في اليهودية والإسلام أيضاً؛ في حين أنّ البروتستانتية لا تعرفُ غير لاهوت الرحمة والنعمة والاصطفاء؛ الذي يتخذ سمةً متشدِّدة مثلما هو لدى بعض اللاهوت اليهودي. وسنعود لذلك لاحقاً. يعني هذا بعبارةٍ أُخرى أنّ صورة الله -عزَّ وجلَّ- لدى القائلين بالرحمة والفضل هي صورةُ الحرية المتبادَلة، وفيها أنّ الله -سبحانه- منزَّهٌ تنزيهاً مطلقاً عن الشَّبَه بالبشر، وعن الخضوع لمقاييسهم (كلُّ ما خَطَر ببالك، فالله بخلاف ذلك)؛ لكنه رحمةٌ وتفضُّلاً منه أرسل الرسالات، واختار العناية بسائر الكائنات التي خَلقها، ولا إلزامَ له بذلك بل نحن المؤمنين نلتزمُ بما سمَّى به نفسَه، من ضمن مشيئته وقدرته وإرادته، وحسبما اقتضته حكمته

واقتضاه تفضّله، ومقاصدُهُ التي لا تُدرَك. وفي مقابل هذه الحرية المطلقة لله، هناك الحرية النسبية للإنسان بين الإيمان والكفر، والصلاح والفساد، مع وجود النصوص أو التعاليم التي تُبيّن لهذا الإنسان طريقي الخير والشرّ، وعواقب اختيار أحد الطريقين. لكنْ في هذا اللاهوت شيْءٌ من الجبرية (من خلال القضاء والقدَر)، وشيْءٌ من الاتكالية (تبقى في نطاق عناية الله ورحمته مهما فعلتَ). أمّا في اللاهوت الآخر، لاهوت التنزيه والعدل، والذي سميناه لاهوتَ الالتزام المتبادَل؛ فإنّ الله والإنسان كِلاهما يتمتّع بالحرية؛ لكنهما مثقلان بالالتزامات المترتبة عليهما: على الله الالتزام بما ألزمَ به نفسَه (يسمّيه المعتزلة الوعد والوعيد)، فليس من العدل أو التنزيه أن يهدي الله إنساناً دون آخَر، ولا أن يرحم مذنباً، أو لا يُثيبَ مؤدِّيا للفرائض والتعاليم. على الله الالتزام بوعده ووعيده ولا يستطيع الإخلال بذلك أو تنتفي صورةُ الألوهية عنه. وفي المقابل الإنسان هو الذي يخلُقُ أفعالَه التي لا علاقة لها بالقضاء والقدَر، وهو لذلك مسؤول مسؤولية كاملة. وهكذا فالإيمانُ نعمةٌ ورحمةٌ وتفضُّلٌ من الله لدى أهل لاهوت الرحمة، وواجبٌ وحقٌّ لدى أهل لاهوت التنزيه والعدل. والنعمة والرحمة والعناية تتخذ أبعاداً كبرى لدى المتكلمين اليهود بحيث تصل إلى اختيار الله لهم شعباً ودِيناً وليس أفراداً، والاختيار والاصطفاء والاتّخاذ قويٌّ أيضاً لدى البروتستانت لكنه فردي. وفي المقابل يبلغ لاهوت الواجب أحياناً لدى المعتزلة وبعض الأرثوذكس حدود وضع الله في ضبطيةٍ عقليةٍ محكمةٍ تُجاه الإنسان بالذات: يجب على الله كذا، ولا يجوز له أو عليه كذا! بيد أنّ مسألة الوجود الإلهي المتعالي في الديانات الإبراهيمية فرضت مشتركاتٍ رغم اختلافات اللاهوتيين. إذ لا بد من تصور إمكان قيام علاقةٍ بين الطرفين: الإلهي المتعالي والمتفرّد من جهة، والإنساني من جهةٍ ثانية؛ ولذلك كانت هُوامات الصوفية والقبالة والغنوص، والتي ما استطاع اللاهوت الرسمي قبولها؛ لأنها تتجاوزُ كلَّ المؤسسات الدينية وتُلغي الكهنوت بادعاء وحدة الوجود أو الحلول أو الصلة المباشرة بين الله والإنسان خارج القناة (القانونية): النبوات والكتب، وفي المسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية إلى حدٍّ ما: تجاه تجسُّد الله نفسه، وتُجاه الكنيسة الجامعة والحاكمة! ولذلك قال المتكلمون المسلمون بقياس الغائب على الشاهد، وتبعهم في ذلك المتكلمون اليهود، واللاهوتيون الكاثوليك وإلى حدٍّ ما الأرثوذكس. وقياس الغائب (الله) على الشاهد (عقل الإنسان وقيمه وإدراكاته) يعني إقامة صلةٍ من نوعٍ ما بين المطلق والنسبي من خلال صفاته بالقدرة والعناية (لدى الأشاعرة والكاثوليك)، ومن خلال أفعاله بما يسمُّونه اللُّطف (لدى المعتزلة والمتأثرين بهم من المتكلمين اليهود والأرثوذكس). ما فائدةُ هذا الاستطراد كلّه؟ فائدتُهُ أنّ البابا يتحدث عن اختلافٍ في صورة الله بين المسيحيين وغيرهم من أتباع ديانتي التوحيد، وبخاصةٍ الإسلام؛ لأن اليهودية تجاوزت "عُنفية" يهوه بالدخول في الميراث اليوناني العقلاني أيضاً. وهذا تأويلٌ للتاريخ اللاهوتي لا يعرفُهُ غيرُه، وقد لا يقول به غير قداسته. فاللاهوتُ الكاثوليكي الوسيط مَبْنيٌّ كلُّهُ على المباني والمناهج التي عرفها المتكلِمون المسلمون من السريان والأرثوذكس وفلاسفة الإغريق، وبنوا عليها وطوَّروها، وأدخلوا فيها الكاثوليك واليهود، وعادوا إلى التأثير حتّى في السريان والأرثوذكس رغم سبق هؤلاء لهم، كما سبق القول، بالتعمُّق في الموروثات

اليونانية قبل ظهورِ الإسلام. وقد هربت الكاثوليكية فالأرثوذكسية من الأفلاطونية إلى نصف أرسطية خوفَ الغرق في الغنوص الذي كافح ضدَّهُ آباءُ الكنيسية الأوائل ووقع فيه أوغسطين وغيره وما كادوا يخرجون منه، ولولا المؤسَّسةُ الكَنَسيةُ القائمة سلطتها على سلطة الدولة أو بموازاتها ـ لصارت الكاثولكية بالذات ديناً غنوصيًّا آخَر مثل غنوصياتِ الأزمنةِ الهيللينية. فالتجربةُ مع الإغريق في اللاهوت الأفلوطيني والأرسطي هي تجربةٌ مشتركةٌ بين الديانات التوحيدية، ولا ينفرد بِها المسيحيون الأوروبيون أو الكاثوليك بالذات الذين أخذوها عن الأرثوذكس والمسلمين أو شاركوهُم فيها! وهكذا فالعقلنةُ في المسيحية الوسيطة عقلنةٌ محدودة وتتركّز في المؤسسة التنظيمية والسلطوية، وليس في اللاهوت المدرسي، الذي ظلَّ مشتركاً بين الإسلام والمسيحية واليهودية (لاهوت موسى بن ميمون يقرأ الأشعرية قراءةً نقدية. وفي السنوات الأخيرة جرى اكتشاف عدة نصوص معتزليةٍ كانت متداوَلة لدى الفرَق اليهودية في بغداد ومصر والأندلس). فمن أين أتت الخصوصيةُ المسيحية المستنيرة التي يتحدث عنها البابا في صورة الله، والتي يُدْخلُ فيها اليهود، ويُخرجُ منها المسلمين؟ ليس من اللاهوت الكاثوليكي بالتأكيد، وليس من تاريخ الكنيسة بالتأكيدِ؛ بل من التجربة الإنسانوية الأوروبية في القرون الأربعة الأخيرة، والتي صارت عالمية عبر مقولة "الحق الطبيعي" للإنسان. وبهذا المعنى تغيرت صورة الإنسان، وصورة العالم، فتغيرتْ صورةُ الله لدى البابا بعد نضالٍ فاتيكاني وبابوي في الإصلاح المضادّ، استمرَّ على مدى ثلاثة قرون! والحداثة التي دخلها البروتستانت وبعض اليهود قبل الكنيسة الكاثوليكية، هي التي أعادت طرح كلّ هذه المسائِل، واضطرّت المؤسسة الكاثوليكية الصلْبة والمتضائلة حتى مطالع القرن العشرين إلى الدخول والمنافسة من جديد، مستفيدةً لإعادة التموضع داخل العصر من سلبيات راديكاليات الإنسانويين غير الإنسانية!

2

.. ويباشرُ البابا معالجة مسألة الأزمنة الحديثة أَو نقد الحداثة ومحاولة التصالُح معها، قبل الوصول إلى الخاتمة والاستنتاجات. وهو يرى أنّ المَعْلَمَ الرئيسيَّ فيما يتعلق بالتفكير الديني خلال أربعة قرون وحتى القرن العشرين، كان ما يزال: نَزْع الهلْينة، أو تجريد اللاهوت والفكر الديني المسيحي من التأثيرات الفلسفية اليونانية عليه. و قد مرت العملية حتى العصر الحاضر من وجهة نظره بثلاث مراحل. في المرحلة الأولى مرحِلة عصر الإصلاح (البروتستانتي) يقول البابا: إنّ الغرضَ من وراء ذلك كان العودة إلى سذاجة وحرارة الإيمان، بالاستناد للنصّ نفسه مجرَّداً عن أغطيته الفلسفية. وقد دخل في ذلك ليس اللاهوتيين فقط؛ بل الفلاسفة من مثل عمانوئيل كانط الذي أراد أن يضع الفكر الفلسفيَّ جانباً، ليفسح المجال للإيمان. وفي المرحلة الثانية مرحلة اللاهوت الليبرالي التي امتدَّت حتى القرن العشرين ظهر لاهوتيون كبار مثل أدولف فون هارناك تابعوا تلك العملية وأسَّسوها على مقولة باسكال في التفرقة بين إله الفلاسفة، وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وتابع البابا قائلاً: إنّ هارناك أراد استرجاع حرارة الرسالة الأولى للسيد المسيح التي

غرقت في خضمّ التـدقيقات اللاهوتيـة والتفلسُـف الهيلليني. وزاد الأمرَ راديكالية دخول عصر التصنيع وزمـان التكنولوجيـا حيث صـار الهمُّ الوصول إلى اعتبار اللاهوت علماً؛ استناداً إلى إدخـاله في "علـم التاريـخ" مـن جهـة، وإلى قيـاس دقّته وعلميته، ودقـة العلوم الإنسانية الأخرى، على دقّة العلوم البحتة والتطبيقية. ولأنّ اللاهوتَ المتّصل بالإيمان ليس بالأمر الـذي يمكن إخضاعه للتجربـة؛ فقد أُخرجَ سؤالُ الله عمليًّـا من المجال العلمي الحيّ والمتطور؛ وصار الدينُ يُدرَسُ بوصفه نظاماً وضعيًّا.

ثم دخلت المرحلـةُ الثالثـةُ في نزع الهلْينـة، وهي المرحلةُ المُعاصـرة، في عصر التعددية الثقافيـة. وفي هـذا المرحلـة قيـل: إنّ التهليُنَ المسيحيَّ تـمَّ في أزمنـةٍ سالفـة، وفي ظروف منقضـيـة. ولـذلك ينبغي السمـاحُ للمسيحيات والمسيحيين الجُدُد أن يمـارسوا شخصياتهم وظروفهم وسياقاتهم كما مارسَها المتهلينون في أزمنةٍ سالفة؛ بحيث يُنتجون دينَهم الخاصّ المتلائم مع تقاليهم الثقافية الخاصّة في زمان التعددية. والبابا يرى في ذلك شذوذاً وانعداماً للمعقوليـة. فالهلينـة بالنسبة للمسيحية ليست غطاءً مُستعاراً يمكنُ نزعُهُ؛ بل إنها صارتْ جزءًا من الإيمان المسيحيّ نفسه.

ويختم البابـا المحاضـرة عن "العقل والإيمـان" بالـدعوة إلَى العـودة إلَى العقل الفلسـفي، وليس الاكتفـاء بقصْـر العقل والمعقوليـة على منتجات التجربـة المباشـرة ومقاييسها. وهو يرى أنّ ذلـك لا يعني التنكر للتكنولوجيا أو لعصـر الأنوار قبلهـا؛ بل البناءُ عليهما. فلا بُدَّ مـن تصـحيح علاقـة العقل بالإيمـان، من طريـق الاعتراف المتبـادَل، والنظر إيجابـاً في تاريخيـة العلاقة والتقاليد الدينية المختلفـة، وبخاصـةٍ المسيحية. لا بُدَّ من العودة إلى تأمل كلمـة الإمبراطور مانويل الثاني: "الإقـدام على التصرُّف بـدون معقولية، مُناقضٌ لطبيعة الله".

يحمِّل البابـا المسؤوليـة فيمـا آل إليـه أَمْرُ الـدين إذن لأولئك الـذين أصـرُّوا على "نَزْع الهلْينة" أو إلغاء اللاهوت المتفلسف و المعقلن منذ القرن السادس عشر. وهو قسّم ذلك في ثلاث مراحـل بـدءًا بـالقرن السـادس عشـر. يتحمَّل البروتستانت مسؤوليـة المرحلـتين الأُوليين، ويتحملُ العلمانيون والتجريبيون التعدديون مسؤولية المرحلة المعاصـرة. وهذه مرةٌ ثانيـة وثالثة نظرة متفرّدة أو خاصة في فهم تطورِ التفكير بشـأن الـدين في أوروبا في القرون الأربعـة الأخيرة. والواقعُ أنّ المشـكلات المتعلّقـة بالدين والتي طُرحت منذ القرن السـادس عشـر تتمثّل في ثلاث: علاقـة الـدين بالكنيسـة، وعلاقـة الكنيسة بالدولة، وعلاقة العقـل بالإيمان، وأخيراً منزلـه الـدين في الحياة الإنسانية. أثار الإصـلاح البروتستانتي في القرن السـادس عشـر ومـا بعده مسألـة علاقـة الـدين والخلاص بالمؤسَّسـة (الدينيـة)، أي الكنيسة الكاثوليكية. وقد سبقته تمرداتٌ كثيرةٌ على السلطة الكنسية منذ القرن الثالث عشر، الـذي انتهت فيه الحروب الصـليبية. وقـد لجأت البابوية في قمعها إلى الاسـتنصار بجيوش الملوك "المؤمنين"، وجيوش الفاتيكـان نفسه. وأكملتْ ذلـك بإنشاء محاكم التفتيش. وهكـذا فما كان الأمْرُ أمرَ نزع الهلنيـة، بل هل الـدين (أو الإيمان) ممكنٌ دون المؤسَّسـة، ومـا هي سلطـة المؤسسة إن كـانت؟ ومـا هي حـدودُها؟ البابـا يُمـاهي هنـا بين الإيمـان والمؤسَّسة،

ويعتبر التمرد على المؤسَّسة تمرداً على الدين والإيمان. وقد ثبت خطل هذه الرؤية. فقد انتصرت البروتستانتية التي أضعفت المؤسَّسة، دون أن يضعُفَ الدينُ أو الإيمان. وما استطاعت البابوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن تُنهي التمرد البروتستانتي بخلاف ما حدث للتمردات السابقة؛ لأنّ الدولة كانت قد انفصلت بالتدريج عن الكنيسة؛ فما عاد بوسعها شنُّ حروبٍ صليبيةٍ في الخارج، ولا فرض سيطرتها بواسطة جيوش الملوك المسيحيين في الداخل الأوروبي. وهكذا ففي المرحلة الأولى ما كان السؤال سؤال ماهية اللاهوت؛ بل ضرورة المؤسسة الدينية (الكاثولكية) لبقاء الدين المسيحي. وقد كانت الكنيسة تستخدم النظام اللاهوتي المدرسي لتثبيت سيطرتها في العالم المسيحي، ومن الطبيعي عندما تتزعزعُ تلك السيطرة، أن تتغير "صورةُ العالم"، فيتصدع البناءُ اللاهوتي الذي يدعمها أو يعطيها المشروعية.

أما السؤال الآخَرُ، الذي طُرح في القرن الثامن عشر، أو ما عُرف بعصر الأنوار، فكان يتصل بعلاقة الإيمان بالعقل. كان هناك العقلانيون المُلحدون الذين اعتبروا أنّ الدينَ في طريقه إلى الزوال، وأنّ الباقي هُواماتٌ فرديةٌ وشخصية. وقد بلغ هذا النوع من الفكر ذروته في راديكاليات الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر. بيد أنّ المفكرين الجدّيّين من أمثال كانطِ وهيغل وهوبز ولوك ولايبنتز واسبينوزا ما كانت عندهم أوهامٌ حول إمكان اختفاء الدين أو الإيمان الديني. لكنهم ما عادوا يرون إمكان استمرار "اللاهوت العقلي" أي تأسيس الإيمان الفردي على البرهان اللاهوتي الأفلاطوني أو الأرسطي. ومن هنا فقد عادوا إلى أطروحة ابن رشد التي كان المتكلمون واللاهوتيون قد نحّوها جانباً كما سبق ذكْرُه ولصالح اللاهوت المعقلن للغزالي وتوما الأكويني. قال ابن رشد بحقيقةٍ إيمانيةٍ وأخرى بُرهانية. الأولى تتعلقُ بعالم الدين والإيمان، والأخرى تتعلّق بعالم الكون والفساد، أو الحسّ والتجربة. البابا يعتبر ذلك تهميشاً للسؤال الديني، لأنه ما يزال مهجوساً بدور اللاهوت المؤسَّسي؛ لكنه من جهةٍ أخرى لا يستطيعُ اعتبار ذلك مرحلة أخرى في تجريد الدين من أسلحته الفلسفية أو الفكرية. فالواقعُ انّ كانط وهيغل واسبينوزا كانوا بذلك يحمون الإيمان الدينيَّ العميق من شطحات التنويريين الراديكاليين (أمثال هيوم وفويرباخ ونيتشه) وتشددات الحروفيين الإنجيليين، وليس من بقايا الكنيسة الكاثوليكية. وقد أضيف إلى ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين إحساسُ علماءِ كبار بأنّ الإيمان العلميَّ أو بالعلم (الرياضيات والعلوم الطبيعية) أسقط الحاجة للدين أو للإيمان، وما عادت للدين غير فائدةٍ ضئيلةٍ في المسائل الأخلاقية. لقد تبلورت رؤيةٌ جديدةٌ للعالم في الوقت الذي كانت فيه الكاثولكية ما تزال منهمكة في الدفاع عن سلطة الكنيسة، وليس عن الإيمان الديني.

لماذا يشعُرُ البابا بالجَزَع؟ إنه خائفٌ من تضاؤل دور الدين في الحياة العامة الأوروبية. بيد أنّ التجربة الأوروبية مع الدين في القرون الأخيرة خاصَّةٌ وليست عالمية. وما يجري في الولايات المتحدة وآسيا وإفريقيا شاهِدٌ واضحٌ على ذلك. ففي سائر القارات (بما في ذلك بعض أنحاء أوروبا) تمدُّدٌ إيمانيٌّ وثَوَرانٌ دينيٌّ، وليس تضاؤلاً للدين والإيمان. ولذلك فإنّ الحلَّ الذي يقترحُه (إعادة تعريف العقل ودوره) لا يتلاءَمُ والواقعَ المتطوّر. كأنما هو

ما يزال محبطاً لما كان في حقبة ما بين الحربين، وحقبة الحرب الباردة. لقد تغيَّر الزمان، وما عادت العلمانيات الراديكالية هي المُشكلة؛ بل الديانات الجديدة غير المؤسّسية. والخوفُ مشروعٌ ومبرَّرٌ لهذه الجهة؛ وإن كان الشكُّ كبيراً في إمكان نجاح المؤسسة الدينية التقليدية لدى أهل الديانات الثلاث، في العودة لقوتها وعزّها. هناك مُعاناةٌ كبيرةٌ من الإحيائيات والأصوليات المنفلتة من عقالها، والتي لا تشعُرُ الحاجة إلى أيّ بُعْدٍ مؤسَّسيّ أو انضباطٍ من أيّ نوع. لقد انهار اللاهوتُ المدرسيُّ الكاثوليكيُّ في القرن الثامن عشر. كما انهارت المؤسسة الدينية لدى اليهود الأرثوذكس في مطلع القرن العشرين؛ وكذلك الأشعرية السنية في العقود الماضية. وتعملقت الإحيائياتُ دون لاهوتٍ ولا علم كلام. وهذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجهُ الأديانَ الإبراهيمية كلَّها.

وقد أدرك البابا السابق يوحنا بولس الثاني هذا الأمر، فوضع الكاردينال راتسينغر (البابا الحالي) رئيساً لمجمع الإيمان ليُحكمَ القبضة على الكنيسةِ الكاثوليكية فلا تتشقّق في عصر التحولات الكبرى. وانصرف هو منذ مطلع الثمانينات إلى مصارعة الشيوعية في أوروبا الشرقية، ومنذ مطلع التسعينات إلى مكافحة الأنظمة الشمولية والمهيمنة الأخرى، والدعوة إلى الحرية الإنسانية والودّ الإنساني، ومصارعة الفقر والظلم والأدواء البشرية السارية، ومخاطبة ومحاورة أتباع الديانات الأخرى، الذين اعتبرهم حلفاء وشركاء في الإيمان، وفي المصير الإنساني الكبير.

أمسك البابا يوحنا بولس بنبض التاريخ، وراح يشارك في صُنعه. تشدَّد مُؤَسَّسيًّا بالداخل الكنسي، وانطلق عالميًّا حاملاً أسئلة العصر وتحدياته. أمّا البابا الحالي فيريد أن يتموضعَ في أوروبا، طارحاً من جديدٍ الأسئلة التي جرى تجاوُزُها قبل قرنٍ وأكثر. ولا شكَّ أنّ المشكلات الأكبر واقعةٌ اليوم بداخل الكنيسة الكاثوليكية، ليس بسبب هجوم الإنجيليين الجدد والمولودين ثانية عليها فقط؛ بل أيضاً بسبب تفاقُم القضايا المحتاجة إلى حلول منذ ثلاثة عقودٍ ونيِّف. إنها عوالمُ جديدةٌ تُطلّ عليها البشريةُ جمعاء، ولا تنفعُ فيها لاهوتياتُ الهيللينيين، ولا المُصالحات المقترَحة بين العقل والإيمان.

3

يتبيَّنُ من الاستعراض التفصيلي لمحاضرة البابا بنديكتوس السادس عشر وسياقاتها، ليس أنه لا علاقة لها بالإسلام، كما بدا لي لأول وهلة؛ بل إنها معنيةٌ باستعادة أوروبا إلى المسيحية، واستعادة المسيحية إلى أوروبا. وللمشروع نفسه بغضّ النظرِ عن صحته وإمكانه وطرائق الوعي به، علائقُ وثيقةٌ بالإسلام، يبدو لأول وهلةٍ أيضاً أنها -أي تلك العلائق- غير مباشرة؛ وليس الأمر كذلك. ولكي لا يبقى ما أقصدُهُ عن العلاقة الوثيقة بين محاضرة البابا والإسلام عرضةً للتأويلات سأبدأ بترجمة الفقرة التمهيدية التي وردَ فيها ذكر الإسلام في المحاضرة: ".. كنتُ أقرأ نشرة البروفسور تيودور خوري (عام 1966م) من جامعة مونستر لقسمٍ من حوارٍ ربما جرى (عام 1391م) في الثكنات العسكرية الشتوية على مقربةٍ من أنقرة، بين الإمبراطور البيزنطي العالم مانويل الثاني

باليولوغوس، وعالم فارسي مسلم في موضوع المسيحية والإسلام، والحقيقة المتضمّنة في كلٍ منهما. وربما كان الإمبراطور نفسه هو الذي سجَّل ذلك الحوار خلال حصار القسطنطينية (من جانب العثمانيين) بين (العامين 1394و1402م)، وهذا ربما يعلّل سبب ذِكر حُججه بالتفصيل، دونما اهتمامٍ لافتٍ بإجابات العالم الفارسي. الحوار المذكور يتوسَّعُ إلى ما وراء حدود البنى العَقدية في الإنجيل والقرآن، ليركّز بخاصةٍ على صورة الله والإنسان، راجعاً عندما يكونُ ذلك ضروريًّا، إلى العلائق بين "الشرائع الثلاث": العهد القديم والعهد الجديد والقرآن. في هذه المحاضرة أريد أن أناقش نقطة واحدة- ربما كانت هامشية في الحوار المذكور هي سياقاتُ علاقة الإيمان والعقل. وقد وجدْتُ أنه من الممكن أن يكونَ ذاك السياقُ الحواريُّ مفيداً في تأمُّلاتي حول المسألة. في المحادثة السابعة من الجدال بين الإمبراطور والعالم الفارسي، يعالج الإمبراطور موضوعَ الجهاد (الحرب المقدَّسة). ومن المؤكَّد أنّه كان يعرف الآية القرآنية (2: 256) والتي تقرّر أنه (لا- إكراه في الدين). وسورةُ البقرة التي تَردُ فيها الآية هي إحدى السُّوَر القرآنية المبكّرة عندما كان محمدٌ ما يزال بدون قوةٍ ونفاذ أمر، وواقعاً تحت التهديد. لكنْ من الطبيعي أن يكونَ الإمبراطور عارفاً بالتعاليم الإسلامية التي تطورتْ فيما بعد وسجَّلها القرآن، بشأن الحرب. ولذلك، ودون مقدماتٍ تفصيلية حولِ الفروق في التعامل مع (أهل الكتاب)، والآخرين (المشركين)، يلتفت الإمبراطور إلى محاوره بشكلٍ مُفاجئٍ وجافٍ طارحاً السؤال الأساسيَّ في العلاقة بين الدين والعنف بشكلٍ عام. يقول الإمبراطور: أرني ما هو الجديد الذي أتى به محمد، وسوف تجد أشياءَ كلّها شريرة وغير إنسانية، من مثل أمره بنشر الدين بالسيف. ثم يمضي الإمبراطور شارحاً بالتفصيل الأسبابَ التي تجعل من نشر الإيمان بالعنف تصرفاً غير عقلاني. فالعنف لا يتفقُ والطبيعة الإلهية، ولا مع طبيعة الروح: لا يحبُّ اللهُ سَفْكَ الدم، والتصرف غير العقلاني مُناقضٌ لطبيعة الله. فالإيمانُ يبزُغ من الروح وليس من الجسد. بيد أنّ الذين يريدون نشر الإيمان يحتاجون إلى قدرةٍ على الحديث الجيدِ، والتأمُّل بعقل، ودون عنفٍ وتهديدات.. ومن أجل إقناعِ روحٍ عاقلةٍ، لا يحتاجُ المرءُ إلى ذراعٍ قويةٍ، ولا إلى سلاحٍ من أيّ نوع، كما لا يحتاج إلى تهديد أي إنسان بالموت. إنّ الحجة البارزة في هذا الجدال ضدَّ الإكراه على اعتناق دينٍ ما، أنّ الداعية الذي تصرف بخلاف العقل، إنما يتصرف بخلاف طبيعة الله. ويلاحظ البروفسور خوري معلقاً: بالنسبة للإمبراطور البيزنطي ذي الثقافة الفلسفية الإغريقية، فإنّ هذا الأمر بدهي. أما في تعاليم الإسلام فإنّ الله مُتعالٍ علوًّا مطلقاً، كما أنّ إرادته ليست مقيَّدةً أو متعلقةً بأي مبدأ آخر بما في ذلك مقاييس العقل نفسه. وهنا عاد خوري للاقتباس من دارسٍ فرنسيٍ معروفٍ للإسلاميات هو روجيه أرنالديز ذكر عن ابن حزم أنّ الأخير ذهب بعيداً في تنزيه الله إلى حدود القول بأن الله ليس مقيداً حتى بكلمته (وعده ووعيده؟)، وليس هناك ما يُوجِبُ عليهِ حتى إنزال الوحي وإرسال النبيين. وبمقتضى هذا الفهم فقد تكون عبادة الأوثان داخلة ضمن نطاق مشيئة الله".

أوردتُ هذا الاقتباس بطوله لكي يكونَ واضحاً ما هو السياقُ الذي تعرضَ فيه البابا

للإسلام وللنبي. وقد انصرف مباشرةَ بعد ذلك لمناقشة مسألة الإيمان والعقل، وكيفية إحداث المصالحة في أوروبا بين المسيحية والحداثة، كما ذكرتُ في العرض التفصيلي السابق للمحاضرة. وأرى أنّ هناك أربعة أمورٍ تستحقُّ الاعتبار والنقاش في هذا الصدد وهي:

- السياق والظروف التي جرى فيها الجدالُ المفتَرَض بين الإمبراطور البيزنطي والعالم الفارسي.

- الموضوعات الواردة في الحوار أو الجدال.

- فهم عادل تيودور خوري والبابا لموضوعات الجدال وتداعياتها.

- وأخيراً دلالات هذا الاقتباس من جانب البابا في هذه الظروف بالذات.

لجهة السِياق والظروف التِي جرى فيها الجدالُ أَو الحوار بين الإمبراطور والفارسي المسلم، الأمْرُ واضح. فقد دأب العثمانيون بعد الاستيلاء على الأناضول في مطلع القرن الرابع عشر، على قضْم ممتلكات الدولة البيزنطية حتى أكملوا الاستيلاء على آسيا الصغرى، والممتلكات الأُخرى بشرق أوروبا والبلقان، وفي الجزر الإيطالية، وما بقي في النهاية غير القسطنطينية التي حاصروها مراراً دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها. وما كانِ مانويل الثاني باليولوغوسِ (واللقب معناه العلاّمة بالكتب) رجل دولةٍ كبيراً؛ لكنه كان مثقفاً بالثقافة الإغريقية والكَنسية، وعارفاً بالإسلام. وفي الحصار الطويل الثالث للقسطنطينية من جانب السلطان بايزيد الأول يلدرم (1389-1402م) (عام 1391م) كانت هناك فرصة لدى مانويل الثاني لمقابلة الكثير من المسلمين من رُسل السلطان، ومن المترددين على بلاط بني عثمان من فقهاء العرب والعجم، ومن الوسطاء، بل من العلماء والمسلمين العاديين؛ لأنه ما كان وقتها قد صار إمبراطوراً بعد، بل كان ولِياً للعهد لوالده يوحنا الخامس، الذي كان تابعاً للسلطنة، واضطر لإرسال ابنه مانويل رهينة لبلاط السلطة العثمانية، ولذلك فإنّ مانويل كانِ محتجزاً وقتها في المعسكر المقابل لوالده المحاصِر، والمعروف أنه تمكن من التسلل إلى القسطنطينية في إحدى ليالي شتاء (العام 1391م) بعد أن علم بوفاة الوالد المقهور. ولذلك فقد يكون ممكناً لقاؤه وجدالُه مع عالمٍ مسلمٍ من أصلٍ فارسي. بيد أنّ الدعوى التي أوردَها بشأن نشر الإسلام بالسيف ليست جديدةً على الجدال البيزنطي ضدّ الإسلام، والذي بدأ في القرنين الثامن والتاسع للميلاد ويتضمن (كما ذكر عادل تيودور خوري في كتابه الكبير عن الجدال البيزنطي مع الإسلام، 1969م) أربع دعاوى رئيسة: أنّ الإسلام يقول بالقوة في نشر الدين، وأنه مستِغرَقٌ في اللذائذ الحسية، وأنه يتضمنُ نزعة جبرية، وأنه استلب العقائد المسيحية وشوَّهها أو قلبها رأساً على عقب. وقد كان بِوُسْعِ إيمانويل لو أراد أن يكونَ أكثر إنصافاً، إذ كان يعرفُ أنّ صراعَهُ مع العثمانيين، وصراع العرب مع البيزنطيين من قبل ما كان على نشر الدين، بل كان صراعاً سياسيًّا وعسكريًّا من أجل السيطرة والفتح، وكان يعرفُ ذلك ولا شكّ ليس من القرآن فقط؛ بل من الممارسة. فحتى عصر الحروب الصليبية كانت أكثرية السكان ببلاد

الشام ومصر ما تزال مسيحية (أرثوذكسية أو سريانية) رغم خضوعها للسيطرة الإسلامية على مدى ستة قرون. وكذلك الأمر بالنسبة لسكّان آسيا الصغرى في القرن الخامس عشر؛ إذ كانت غالبيتُهُم ما تزال مسيحية. لكنه في الواقع ما كان يستطيع الإقرار بالانفصال بين الفتح العسكري ونشر الإسلام، ووالدُهُ مُحاصَر، وهو يسمعُ نداءات الجهادٍ وقد أقبل على متابعة الصراع مع المسلمين في جدالياته بعد أن صار إمبراطوراً. فقد انفكّ الحصارُ عن القسطنطينية لأنّ تيمورلنك هاجم العثمانيين وقتها آتياً من الشام، ومن آسيا الوسطى، وانتهى الأمْرُ بهزيمة السِلطان بايزيد وأسْره من جانب تيمورلنك، وإطالة عمر الدولة البيزنطية خمسين عاماً إلى أن سقطت القسطنطينية أخيراً بيد العثمانيين (عام 1453م).

إنّ الأخطَر في جداليات مانويل الثاني ضد الإسلام ربْطُهُ بين العنف باسمِ الدين، وبين "صورة الله " في الإسلام. العنفِ من وجهة نظره ضدّ العقل، والله عقلٌ أو نوسٌ أو لوغوس(بالمفهوم الأفلاطوني أو الأفلوطينيٍ)، والذي يعتبرُهُ مانويل الثاني (وعادِل خوري والبابا) جوهر الدين المسيحي أيضاً. والواقع أنّ في الأمر ثلاث مغالطات أو إسقاطات: فالعنف في نشر الدين ليس غريباً عن الميراث الديني البيزنطي (تجاه البلغار والشعوب السلافية والمتوسطية الأخرى)، ثم إنَّ الحرب ليست جزءًا من صورة الله -عز وجلّ- في الإسلام؛ بل الجهاد أمرٌ تنظيميٌّ ودفاعي. أما الإسقاطُ الثالث فيتعلقُ بالبابا بنديكتوس؛ إذ عندما تورِدُ اقتباساً فلأنك توافق عليه أو تريد الردَّ عليه؛ وهو ما ردَّ عليه؛ لذلك فقد يكون قصده أن الخيار الإسلاميَّ خيارٌ عنيفٌ وغير صالحٍ لما هو بصدده من توفيقٍ بين الدين المسيحي والحداثة في أوروبا، ويبدو ذلك في الإسلام من صورة الله وإلى الجهاد العنيف.

وهكذا فإنّ الخَطَل في فهم الأمر كلِّه، لا يظهر لدى الإمبراطور البيزنطي المُحاصَر من جيوش إسلامية في مطلع القرن الخامس عشر؛ بقدر ما يظهر لدى البابا بنديكتوس في مطالع القرن الواحد والعشرين. هناك موضوعاتٌ ثلاثةٌ تستحقّ المعالجة في هذا السياق: صورة الله -عز وجلّ- في الإسلام، ومعنى الجهاد قديماً وحاضراً، وصورة الجهاد والإسلام في الظروف العالمية الراهنة. وفي هذه الأمور الثلاثة أخطأ الرجل الكبيرِ. فصورةُ الذات الإلهيةِ المتسامية والمتعالية والمنزَّهة في علم الكلام الإسلامي تقصدُ إلى الإطلاق، ولا تقصدُ إلى اللامعقولية. وهذا معروفٌ ليس في علم الكلام الإسلامي فقط؛ بل في اللاهوتين: اليهودي والمسيحي بكافة تياراته. وقد استُخدم الميراثان الأفلاطونيٍ والأرسطي لِدى اللاهوتيين المسيحيين لإنقاذ التنزيه؛ لأنّ العهد القديم يعرضُ صورة حسية عنيفة لله، ولأن الإله تجسَّدَ في المسيحية. والبروفسور خوري والبابا عالمان لاهوتيان كبيران في الدينين المسيحي واليهودي، والبروفسور خوري يدرّس الإسلاميات منذ أربعين عاماً، وله عشراتُ الكتب في صورة الإسلام قديماً وحديثاً. ولذلك يصبحُ عجيباً ألاَّ يجد غير اقتباس عن ابن حزم (بواسطة أرنالديز) للتدليل على "الإغراب" في تنزيه الله عند المسلمين، كأنما ذلك غير معروفٍ لدى المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك بالذات! وكيف لا يعرفُ وهو المفسِّر الكبير للقرآن (كتب تفسيراً للقرآن بالألمانية وقع في

اثني عشر مجلداً جمعه من أمهات كتب التفسير لدى المسلمين) العلاقة بين قوله –تعالى-: (لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون)، وقوله: (كتب على نفسه الرحمة)؟! ثم كيف يتصل "الجهاد" العنيف بصورة الله التي تُصبح أفلوطينية خالصة لدى المعتزلة بالذات (ذات بدون صفات = عقل محض لدى الفارابي وابن سينا) الذين يُحبُّهُم البروفسور خوري؟! (*) وما دام الحديث عن القرآن؛ فأين هو الموضعُ في القرآن الذي يَردُ فيه ذكْرُ الجهاد أو الحرب مجرَّداً وليس لردّ اعتداء، وأينَ يَردُ ذكْرُ الجهاد على أنه لنشر الدين الإسلامي أو فرض اعتناقه على المغلوبين؟! ويُعلِّل البابا -تبعاً لعادل خوري- اتّهام الإمبراطور للمسلمين بنشر الدين بالعنف رغم مخالفة ذلك للآية القرآنية؛ بأنّ الآية نزلت في ظروف ضعف النبي، وأنّ الإسلام شهد تطوراتٍ بعد ذلك سجَّلها القرآن وتغيَّر فيها هذا الحكم: أفلاَ يعلم البروفسور خوري، وهو المفسِّر الكبير للقرآن أنّ آية تحريم الإكراه في سورة البقرة، وأنّ سورة البقرة هي أطولُ سُوَر القرآن، وأُنزلت (عام 625م)، أي في المرحلة الثانية من حياة النبي بالمدينة بعدما انتصر في معركة بدر، وحينما صار في أوج قوته؟! ثم أين هي التدويناتُ القرآنيةُ المتأخرة التي تقول بنشر الإسلام بالسيف؟ أنا أفهمُ أنَّ مانويل الثاني كان يعتبر جدالياته جزءًا من الدفاع عن نفسه ودولته في مواجهة المسلمين الهاجمين عليه (وإنْ ليس باسم الدين)؛ لكنني لا أفهمُ هذه التسْويغات للاهوتيَّين الكبيرين في القرن الحادي والعشرين!

ولنأْت إلَى الظروف والدلالات. فمنذ مطالع التسعينات من القرن الماضي تتضخم مصائرُ أطروحة "صراع الحضارات"، ويقول هنتنغتون وآخرون كثيرون: إنّ الإسلام يملكُ حدوداً أو تخوماً دموية. وبعد الحادي عشر من سبتمبر عام (2001م) صار الإسلام مشكلةً عالميةً بوصفه يملك تياراً أصولياً قويًّا يقول بالعنف (تحت اسم الجهاد) وعلى مستوى العالم. وفي الأسابيع الأخيرة استعمل الرئيس جورج بوش مراراً تعبير "الفاشية الإسلامية" بدلاً من "الجهادية الإسلامية". وقد عمل البروفسور خوري طوال العقود الأربعة الماضية على تصحيح النظرة للإسلام في أوروبا والغرب، وفي أوساط الكنيسة الكاثوليكية بالذات؛ وهو يعلم الإشكاليات المحيطة بالمسألة كلها. وقد عُرف عن البابا السابق يوحنا بولس الثاني وَعْيُهُ الكبير لهذه المسألة؛ ولذلك ففي الوقت الذي كان يُدينُ فيه حروب أميركا بالعراق وفلسطين وأفغانستان؛ كان يُصرُّ على محاورة المسلمين، وعلى اعتبار أنّ طبيعة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين هي التي ستقرر مصائر العالم. وليس هذا وعيَ البابا الحالي فيما يبدو. ليس لأنّه مُعادٍ للإسلام؛ بل لأنه يملك رؤية انكماشيةِ هدفُها استِعادةُ أوروبا وتحْصينُها بالإيمان المسيحي. لقد حَيَّدَ البابا بنديكتوس اليهودية بضمِّها إلى الميراثين اليوناني والمسيحي، ثم انصرف لكسْب البروتستانت والعلمانيين لرؤيته الانكفائية أو الاكتفائية. لكنّ المسيحية دينٌ عالميٌّ كبيرٌ وشاسِع. والمسيحيون (حتى الكاثوليك) عددُهم خارج أوروبا ضعف عددهم في القارة القديمة أو أكثر كما هو معلوم. ولذلك فإنّ انكماشيته ستزيد من مشكلات المسيحيين الكاثوليك في أوروبا وخارجها. إنّ هذا المشروع المتضائل للفاتيكان يتجلَّى في إقدام البابا على تغيير اسم "لجنة حوار الأديان

" إلى "لجنة حوار الثقافات". وهذا تراجعٌ عن نتائج المجمعِ الفاتيكاني الثاني (1962-1965م) والتي تضمّنت اعترافاً بالديانات الإبراهيمية وشراكة معها، وحواراً تعارُفيًّا مع الأديان الأخرى. وكانت المجلة الفاتيكانية الشهيرة: "إسلاموـكريستيانا" التي يُصدرها الفاتيكان قد توقفت أيضاً. وكلّ ذلك لا يَعِدُ بخيرٍ وانفتاحٍ وتواصُل. فالمشكلة ليست في رؤية البابا السلبية للإسلام. بل في الانكماش والانطوائية، والتوجُّس من الآخر، وإدخال هذا الدين العالمي الكبير في مشروعٍ وهميٍ هو مشروع أوروبا المسيحية؛ أمّا الذي كان البابا يوحنا بولس الثاني يحاول القيامَ به فهو: إقامة عالمٍ جديدٍ تسودُهُ قيم الحرية والعدالة والسلام، ومكافحة الفقر والجوع والتفاوت الاجتماعي، والتفكُّك الأسْري.

****

قد يكون تقديمُ البابا لمحاضرته بذكر جدالِ الإمبراطور البيزنطي مع الإسلامِ عارضاً فعلاً؛ إذ المحاضرة نفسُها لا تتصل بالإسلام أو أنها ليست جدالاً معه أو مُعاداةً له. لكنّ التمهيد للمحاضرة بهذه الطريقة لا يمكن أن يكونَ مصادفة، ولا ينفرد بابا روما بالمسؤولية عنه.. ذلك أنّ المشهد العالميَّ تُجاه العرب والمُسلمين ورؤية الإسلامِ، مُقبِضٌ ويُثيرُ الرهبة والهمّ. ولن يفيدنا في شيء هياجٌ كالهياج على سلمان رشدي أو الرسوم الكاريكاتورية أو تسليمة نسرين... إلخ. فالحاضرُ في المشهد ليس هذا التصريح أو ذاك ضدّ الإسلام فقط؛ بل الحاضرُ أيضاً "غزوات" 11 سبتمبر إلى نيويورك وواشنطن، وهجمات بالي ومدريد ولندن والمغرب والسعودية والعراق وفلسطين ودارفور والصومال ودمشق. ولا أدري أين وأين. العالم كما سبق القول، يعتبر العنف في العالم الإسلامي، وأخيراً في الإسلام مشكلة بل مشكلة كبرى. ولن تنحلّ المشكلة بالشتائم والردود في التلفزيونات، ولا بالمزيد من أعمال العنف والعنف المضادّ. نحن خُمْسُ سكان العالم، وكما لنا حقوق، علينا مسؤوليات. ونحن لا نأخذ حقوقنا، لكننا لا نتحمَّل مسؤولياتنا أيضاً. لا نريد أن نخاف من العالم كما لن نستطيع إخافتَه. وكما لا صَبْرَ على الخراب الذي لا يتوقف بالعراق وفلسطين ولبنان... وأماكن أخرى كثيرة، لا صبر كذلك على هذه العُزلة المتزايدة عن العالم وسياساته، والعالم وثقافاته، والعالم ودياناته. فلله الأمر من قبلُ ومن بعد.

****

الحواشي

*) مفكر وأكاديمي من لبنان، ومستشار مجلة التسامح.

(*) ذكر لي صديقي البروفسور عادل تيودور خوري في رسالةٍ خاصة أنني أخطأتُ في تاريخ نشرته لمجادلات الإمبراطور البيزنطي، وأنها عام 1966م وليس 2005م. ثم تطرق إلى مسألة نشر الدين بالعنف، وأنّ المقصودَ بها آيات التبرؤ من المشركين ومقاتلتهم في سورة التوبة، وقد نزلت بعد سورة البقرة. والآيات المذكورة خاصة بمشركي

مكة، وتتصل بنقضهم للعهد مع النبي، وليس بشركهم فقط. ثم ليدلني البروفسور خوري على رأيٍ واحدٍ يقول: إنّ آيات سورة براءة نسخت تحريم الإكراه في الدين. وللبروفسور خوري عدة كتب مهمة في تصحيح المفاهيم الغربية عن الإسلام، ومن بينها كتابٌ عن " التسامح في الإسلام". والذي أراه أنّ البروفسور خوري ليس مسؤولاً عن سوء فهم قداسة البابا لشروحه، مثلما البابا غير مسؤول عن سوء فهم المسلمين له!.